من أوهام التحقيق في الشعر الأندلسي(قضايا عروضية)

محمد عثمان الكيلاني

ظل الشعر على مرّ العصور مثار اهتمام الدارسين، وبغية الباحثين؛ تحقيقا ونقدا، فهو المعبر عن حياة الأفراد و الشعوب، وهو الفن الراقي الذي تتفاوت فيه صور الإبداع البشري في رسم لوحات فنية معبرة عن وجدان الناس وأحوالها، ومن هذا المنطلق ازدادت مكانة الشعر في علوم العربية، فهو مادة ثرية يفيد منها الباحثون في تفسير كثير من الظواهر الصرفية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية، وكل ذلك يتطلب مَتْنًا شعريا صحيحا في نقله، وهي مهمة المحققين الذين انْبَرَتْ منهم ثلة مباركة في التعريف بالشعر العربي، فحققت ونشرت عددا غير يسير من تراث العرب الشعري، وأسَّسَتْ مدرسة تُحتذى في مجال تحقيق النصوص، ومع مضيّ الوقت كَثُرَ في أوساط الباحثين مَنْ اهتم بالتحقيق، ومنهم –للأسف- مَنْ استسهله، وما هو بالمركب السهل.

إن كثرة أسماء المحققين وكثرة النصوص المحققة لا يُستغرب معها وقوع أوهام وأخطاء تسيء للنص المحقق بلا ريب، وقد توخيت في هذا البحث الإشارة إلى بعض هذه الأوهام والأخطاء في تحقيق نصوص شعرية أندلسية، فوقفت على بعض القضايا العروضية التي أبرزها الوهم في نسبة وزن شعري جديد ارتضاه الأندلسيون للنسج على منواله، فتوهم بعض المحققين أنه وزن من أوزان الخليل، مما يبين أهمية معرفة علم العروض في تحقيق النصوص، ويضمّ هذا البحث موضوعات هي:

- الوهم في نسبة الشعر لوزنه العروضي:

في أثناء دراستي للشعر الأندلسي وجدت في مجاميع شعر شعرائها، بعض القضايا المتصلة بعلم العروض، كالوهم في نسبة مقطعة إلى وزنها الشعري، وقد اختلفت الأسباب الداعية لذلك، فنسبة هذين البيتين لبحر الرجز من الوهم، وهما قول الشاعر:١

أَفَمَ الْخَليجِ أَتَذْكُرَنْ بكَ لَيْلَةً أَفْنَيْتُ فيها منْ عَفافٍ ما بقي
وَالليلُ بَحْرٌ مُزْبِدٌ بِنُجومِه وَالسُّحْبُ مَوْجٌ وَالْهِلالُ كَزَوْرَقِ

فلا يخفى من التفعيلة الأولى أنهما من بحر الكامل، وقريب من ذلك نسبة هذا البيت إلى بحر الرمل:٢

خَجِلَتْ وَالسِّتْرُ يَحْجُبُها كَيْفَ تُخْفي الْخَمْرَةَ الْقَدَحُ

فقد نسبته محققة المجموع لبحر الرمل،٣ وهو من إحدى صور بحر المديد ذات العروض والضرب المحذوفين المخبونين، على هذا الشكل: فاعلاتن فاعلن فَعِلُنْ×٢، ولعل تشابه تفعيلات البحرين أوهم المحققة.

- تداخل البحور في النص الشعري:

١- على مستوى الشطر:

قد نسبت مقطعة صفوان بن إدريس لبحر الخفيف، وهي قوله:٤

هَلْ عَلِمتَ يا بينُ مَنْ أغرى بي فَمتى ما أصلُ الأنْسَ قَطَعْ
قَدْ نأَتْ داري عَنْ مرْسية وَذَوى ودّي فَفيمَ المتَّبَعْ
يا غرابَ البينِ شاكهْ واقْتَصِدْ فالذي كُنتَ تَشَكّى قَدْ وَقَعْ
خُذْ وَدَعْ وَاعْرِفْ مقاديرَ الجوى والتَفِتْ ما تحتَ قولي خذْ ودعْ

وهي نسبة لا تصح٥ إذا نظرنا في المقطعة كلها، باستثناء الشطر الأول منها؛ ولعل تغييرات الشطر الأول، أوهمت بنسبة النص للخفيف، وتقطيع النص يبين ذلك، كما هو موضح أدناه:

هَلْ عَلِمْتَ/ يا بينُ مَنْ/ أغْرى بِيْ		فَمتى ما/ أصلُ الأذْ/سَ قَطَعْ
٠/٠/٠/-٠//٠/٠/-/٠//٠/		٠/// -٠/٠/// -٠/٠///
فاعلاتُ- مسْتَفْعِ لُنْ- فالاتنْ		فعلاتن- فعلاتن-فَعِلُنْ
مكفوفة- صحيحة- مشعّثة		مخبونة- مخبونة-مخبونة
قَدْ نأتْ دا/ريَ عَنْ مرْ/سيَةٍ		وَذَوى ودّ/دِيْ فَفيمَ الْ/مُتَّبَعْ
٠///-٠/٠/// -٠/٠//٠/		٠///٠/-٠/٠//٠/ -٠/٠///
فاعلاتن- فَعِلاتنْ- فَعِلُنْ		فَعِلاتُنْ- فاعِلاتُنْ- فاعِلن
صحيحة- مخبونة- مخبونة		مخبونة- صحيحة- صحيحة

إن الجدول السابق يبين أن تفعيلات المقطعة كلها- باستثناء الشطر الأول- من بحر الرمل، هكذا بقية المقطعة، ويبقى الإشكال في الشطر الأول الذي ينتمي لبحر الخفيف، بتغيرات شوّهت من جماليته، وإن كان التشعيث مختص بالضرب دون العروض ، فإنه هنا جاء في موقع العروض، كما أن اجتماع تفعيلتين إحداهما مكفوفة والأخرى مشعثة في شطر شعري واحد، يزيد الشطر بعدا عن انسياب الوزن، فالشطر مختل بشكل جلي، ولا يمكن عزوه لبحر الرمل، ولا أجد تفسيرا لإيراده ضمن المقطعة بهذا الشكل؛ فإن كان تمردا على الوزن الواحد، لكان ثمة إشارة إلى ذلك من قريب أو بعيد، وقد رجعت للرسالة التي جاء فيها النص، ولم أجد ما يبرر ذلك، ولكن من الواضح أنه قد وقع تداخل بين البحرين على مستوى الاستهلال في هذه المقطعة.

إن الجدول السابق يبين أن تفعيلات المقطعة كلها- باستثناء الشطر الأول- من بحر الرمل، هكذا بقية المقطعة، ويبقى الإشكال في الشطر الأول الذي ينتمي لبحر الخفيف، بتغيرات شوّهت من جماليته، وإن كان التشعيث مختص بالضرب دون العروض ، فإنه هنا جاء في موقع العروض، كما أن اجتماع تفعيلتين إحداهما مكفوفة والأخرى مشعثة في شطر شعري واحد، يزيد الشطر بعدا عن انسياب الوزن، فالشطر مختل بشكل جلي، ولا يمكن عزوه لبحر الرمل، ولا أجد تفسيرا لإيراده ضمن المقطعة بهذا الشكل؛ فإن كان تمردا على الوزن الواحد، لكان ثمة إشارة إلى ذلك من قريب أو بعيد، وقد رجعت للرسالة التي جاء فيها النص، ولم أجد ما يبرر ذلك، ولكن من الواضح أنه قد وقع تداخل بين البحرين على مستوى الاستهلال في هذه المقطعة.

٢- على مستوى التفعيلة :

إن كان صفوان بن إدريس قد اختلَّ عنده شطرٌ في مقطعة، فإنه قد اختلّتْ عنده تفعيلة في شطر، في قوله:

بَيْنِيْ وَبَيْنَ أَبِيْ جَمْرَةَ عَداوَةُ الْماءِ وَالنَّارِ

فالبيت من بحر السريع، إلا أنّ التفعيلة الثانية في الشطر الأول لم تسلم من الاضطراب، مما يجعلها نادّة ضمن تفعيلات هذا البحر، والجدول الآتي يبين ذلك:

بَيْنِيْ وَبَيْ/نَ أَبِيْ/ جَمْرَة		عَداوَةُ الْ/ماءِ مَعَ الْنْ/نَارِ
٠///٠/ -٠/// -٠//٠/٠		٠/٠/ -٠////٠/ -٠//٠/
مسْتفْعلنْ- فَعِلُنْ- فاعلن		متفْعلنْ- مُسْتَعِلُنْ- فَعِلُنْ
صحيحة-مخبونة(لا تنتمي للبحر) – صحيحة		مخبونة- مطوية- مقطوعة

يوضح الجدول أن ثمة تفعيلة مقحمة في إطار هذا الوزن الشعري، وهي التفعيلة الثانية، التي ينقصها متحرك واحد؛ ليصح بها الوزن، فلو أضاف الشاعر كاف الخطاب في قوله: (بَيْنَ)؛ لتصير: (بَيْنَكَ)، ثم حول الخبر إلى إنشاء، بمناداة أبي جمرة، فقال: (بيْني وَبَيْنكَ أبا جمْرَةٍ)؛ لبرئت التفعيلة مما اعتراها، واستُسيغ فيها زحاف الخبل ، ولا أظن أن شاعرا بقدر صفوان بن إدريس يغفل عن ذلك، حتى

إن أراد تغليب دلالة الخبر، ولعله من أخطاء النسخ، وربما كان تمردا من الشاعر على ثوابت الوزن، وإن لم أجد ما يشي بهذا في شعره

- أخطاء النقل والطباعة:

قد تسبب أخطاء الطباعة إشكالا في الوزن، إذا كان الخطأ يُتَوهَّمُ كونه صوابا؛ لسلامته لغةً، كما في قول ابن سعيد:٦

واطول شَوْقي إلى ثُغورٍ مَلاَى مِنَ الشَّهْدِ والرَّحيقِ

هكذا ورد البيت في مجموع شعر الشاعر، مما يجعل القارئ يتوهم أن البيت يبدأ بقوله: (وأَطْوَلُ) وأن المحقق سها بإسقاط الهمزة من الألف، فالكلمة لم ترد مضبوطة بالشكل، والحق أن الأمر خلاف ذلك، فبالرجوع إلى مصدر النص٧ يتضح أن روايته هكذا: (وَا طُوْلَ شوقي) فإغفال المسافة بين واو الندبة وكلمة: طول، يوهم القارئ بأنهما كلمة واحدة، ويترتب على ذلك خلل في وزن التفعيلة الأولى لا يستساغ في المخلع، ففي المجموع: واطول، وبها تكون التفعيلة: ////٠=مفاعلتن، وهي ليست من المخلع ولا من البسيط في شيء، وفي رواية المصدر: (وَا طُولَ شوقي)، وبها تكون التفعيلة الأولى: /٠/٠//=مستفعلن، وهو الصواب، ومن ذلك حذف التاء في كلمة: (يقتضي) في الشطر الأول من قول ابن سعيد:٨

وَتَصْحيفُها يَقْضي ضِدَّها | وَبالضِّدِّ يَقْضي لِمَنْ غَيَّرَهْ

البيت ضمن مقطعة على بحر المتقارب، ولكن الشطر الأول منه غير مستقيم الوزن، لخلل في تفعيلة الحشو؛ سببه حذف التاء المشار إليها، وبإثباتها يستقيم. ويقول ابن سعيد: ٩

لَقيتُ بمِصْرَ أَشَدَّ الْبَوارْ رُكوبَ الْحمارِ وَكَحْلَ الْغُبارْ
وخَلْفي مُكارٍ يَفوقُ الرِّيا حَ لايَعْرِفُ الرِّفْقَ مَهْما اسْتَطارْ
أناديهِ مَهْلاً فَلا يَرْعَوي إلى أنْ سَجَدْتُ سُجودَ العثارْ

فمقطعته من بحر المتقارب، وتفعيلاته: فعولن فعولن فعولن فعولن×٢، وتعتري تفعيلته تغييرات، تسهم في إنتاج صور متعددة لهذا البحر، وهذه المقطعة قد طرأ على عروضها وضربها تغيير، وقد توهمت محققة المجموع في البيت الثاني إذ جعلت الحاء ساكنة، ولم تلحقها بالشطر الآخر، ظنّا منها أن البيت غير مدوّر، وعليه يكون البيت الثاني بهذا الشكل:

وخَلْفي/ مُكارٍ/ يَفوقُ الرْ/رِياحْ		لايَعْ/رِفُ الرِّفْ/قَ مَهْما اسْ/تَطارْ
//٠/٠/ - ٠/٠// - ٠/٠// - ٠//		//٠/٠ - ٠/٠// - ٠/٠// - ٠//
فعولن-فعولن-فعولن-فعولْ		فَعُلُنْ- فعولن-فعولن-فعولْ

لا يخفى أن البيت بهذا سيختلّ وزنه، فالتفعيلة الأولى من الشطر الآخر، جاءت على خلاف المعتاد في (فعولن)، والسبب تسكين الحاء في (الرياح)، ولعل مرد هذا التسكين وهم آخر، وهو مواءمة التفعيلة المقابلة لها عموديا في البيت الأول، وهي قول الشاعر: (بَوَارْ=//٠٠=فعولْ) حيث حذف آخر السبب الخفيف وسكّن ما قبله، وهو ما يعرف بالقصر، وعلته في البيت الأول التصريع، فالقافية مقصورة، أما بقية الأضرب فمحذوفة، وقد اعتمدتُ البيت بما يناسبه عروضيا، وهو التدوير، على هذا النحو:

وخَلْفي/ مُكارٍ/ يَفوقُ الرْ/ريا		حَ لايَعْ/رِفُ الرِّفْ/قَ مَهْما اسْ/تَطارْ
٠//-٠/٠// -٠/٠// -٠/٠//		//٠/٠ -٠/٠// -٠/٠// ٠٠//-
فعولن-فعولن-فعولن-فعو		فعولن- فعولن-فعولن-فعولْ

والمقطعة تسير على هذا النحو بعروض محذوفة، وضرب مقصور، باستثناء عروض البيت الأول، فهي مقصورة للتصريع.

وقوله:١٠

انْظُرْ إلى الغَيْمِ كَيْفَ يَبْدو وَقَدْ أتى مُسْبَلَ الإزارِ

البيت مطلع لمقطعة، وقد أُثبتَتْ في مجموع شعر ابن سعيد بتسكين الروي، وهو أمر لا يستقيم مع ضرب مخلّع البسيط، والصواب تحريك الروي كما هو مثبت في مصدري المقطعة١١، ومن ذلك ضم ميم الجمع في كلمة (كتابكم)، في قول ابن سعيد:١٢

وَلا وَاللهِ ما هَشَّتْ جُـفوني لغيرِ كتابِكُمْ بَعْدَ الفـراقِ

في المجموع (كتابكُمُ) بضم الميم، ولا يستقيم معها الوزن، وقد أثبتُّها ساكنةً؛ ليستقيم.

- الضرورة الشعرية:

الاجتزاء بالفتحة عن الألف:

إن الشاعر يلجأ في بعض الأحيان إلى الضرورة الشعرية، كحذف الألف من كلمة: (أنا)، والاجتزاء بفتحة النون عنها في قول الرندي:١٣

أنا أَسْلو عَنْ حَبيبي ساعَةً يا عَذولي قلْ هوَ اللهُ أحدْ

فالبيت من مقطعة على بحر الرمل، وتفعيلاته تبدأ بـ: فاعلاتن، أو فعلاتن المخبونة، وبالنظر في التفعيلة الأولى من البيت يتضح أن جعل الألف ساكنة يربك الوزن، ويخلّ بالتفعيلة، فتصبح: أنا أَسْلو= //٠/٠/، مفاعلْتن أو مفاعيلن، وهما تفعيلاتان لا تنتميان لبحر الرمل، وقد ورد ذلك في الشعر العربي، مما دعا النقاد إلى وصفه بالضرورة الشعرية، وذلك بإسقاط الألف، فتصير: أنَ أَسْلوْ= فَعِلاتُنْ، وهي تفعيلة بحر الرمل المخبونة، وقد وردت هذه الضرورة في قوله:١٤

أنا صَمْصامَةُ الكتابةِ ما لي مِنْ شَبيهٍ في المُرْهفاتِ الرّقاقِ

فالبيت من مقطعة على بحر الخفيف، وهو يبدأ بتفعيلة: فاعلاتن، أو فعلاتن المخبونة، وبحذف الألف في تقطيعه تصبح التفعيلة: ٠/٠/// = فعلاتن، وهو الأمر نفسه الذي اضطر إليه ابن سعيد في قوله:١٥

أنا ما عَلمتَ يشوقُهُ ذكرُ الحمى وَتُساقُ روحي والرّكابُ تُساقُ

فالبيت من الكامل، وتفعيلته الأولى: مُتَفاعِلُنْ، وبحذف الألف من (أنا) تصح التفعيلة، وقد وقع الرصافي في الضرورة نفسها في قوله::١٦

وَأقول إنْ أنا لَمْ أفُهْ بِثَنائكُمْ ضاعَتْ لَكُمْ عِنْدي يَدٌ وَذِمامُ

لجأ الشاعر هنا إلى ضرورة شعرية، وهي الاجتزاء بالفتحة عن الألف في قوله: أنا، وهي كلمة وقعت في حشو الشطر الأول، وتقطيعها باعتبار الألف: أنا لمْ أفُهْ = //٠//٠//، ولا تستقيم التفعيلة بهذا؛ لذا كان حذف الألف والاجتزاء بالفتحة ضرورة، وتصير به التفعيلة:////٠//، وقد ذكر ابن عصفور هذه الضرورة حيث أشار إلى أن "الاجتزاء بالفتحة عن الألف أقل من الاجتزاء بالكسرة عن الياء، والضمة عن الواو"١٧، إن هذا الاجتزاء وفق قواعد علم الأصوات الحديث يمكن فهمه بجعل الحركة الطويلة قصيرة، فالألف في (أنا) حركة طويلة يقدر نطقها بنطق فتحتين قصيرتين، وعند تقصيرها تصبح حركة قصيرة يقدر نطقها بنطق فتحة واحدة، وإذا لجأ الشاعر إلى هذه الضرورة بهذا المفهوم فإنه يراعي ذلك في مقام الإنشاد، ولعل معيار استساغة ذلك في الشعر هو استساغته في الإنشاد.

من الضرورات الشعرية صرف ما لا ينصرف، وهو من الأمور الجائزة في اللغة الشعرية، كما في قول الرندي:١٨

جوانِحٌ لا تنْطَفي وَأدْمُعٌ تَطَّردُ

- بحر مبتدع

في أثناء دراستي لأشعار الأندلسيين في زمن الموحدين انتبهتُ إلى قضية عروضية تكررت غير مرة في شعرهم، ومثّلت ظاهرة في شعر تلك الحقبة، وجانبا من جوانب الابتداع في الأوزان الشعرية العربية.

تتمثل هذه الظاهرة في وجود التفعيلة (مُسْتَفْعِلُ) عوض (فاعلن) في حشو مخلع البسيط، وهي ظاهرة تخرج البيت الشعري و القصيدة كلها من مخلع البسيط إلى بحر شعري آخر مبتدع يبدو أنه وجد قبولا عند الأندلسيين، وعند غيرهم من شعراء عصر الموحدين، فتعدد نماذجه عند الشعراء دليل على قبول ذائقتهم له، ويبدو أن تفعيلات هذا البحر قد أوهمت بعض المحققين؛ لتشابهها مع تفعيلات مخلع

البسيط، فنسبوها إليه، كما جاء في مقطعة ابن سعيد المغربي، التي يقول فيها:١٩

قَدْ رُفعَتْ رايَةُ الصَّباح تَدْعو النَّدامى للاصْطِباح
فَبادروا للصَّبوح إنّي قَدْ بِعْتُ في غَيِّه صلاحي
وَلا تَميلوا عَنْ رَشْف ثَغْر وَسَمْع شَدْو وشُرْب راح
وأنْتَ يامَنْ تَروم نُصْحي قَدْ يَئِسَ القَوْمُ مِنْ فلاحي
فَلَسْتُ أصْغي إلى نَصيح ما نَهَضَتْ بالكؤوس راحي

فالمقطعة نُسبت إلى مخلع البسيط، ومعلوم أن تفعيلاته: مستفعلن فاعلن فعولن ×٢، إلا أن الشطر الأول من البيت الثالث جاء خلاف هذا الوزن؛ بسبب ما انتاب تفعيلته الثانية، كما في الجدول الآتي:

وَلا تَميلوا عَنْ رَشْف ثَغْر		وَسَمْع شَدْو وشُرْب راح
٠/٠//-٠/٠/٠/-٠//٠//		٠/٠//-٠//٠/-٠//٠//
متفْعلنْ- مستفعلْ- فعولن		متفْعلنْ- فاعلن- فعولن
مخبونة- مقطوعة- صحيحة		مخبونة- صحيحة- صحيحة

المقطعة تسير كلها على وزن مخلّع البسيط، باستثناء التفعيلة الثانية في البيت السابق، فقد جاءت على وزن (مُسْتَفْعِلْ) التي أصلها: (مسْتفْعلنْ) فأصابها القطع، مما جعل البيت نادّا عن السياق الوزني للمقطعة، ولعل مردّ هذا إلى قرب صورة مخلع البسيط من إحدى صور مجزوئه ذات العروض والضرب المقطوعين، وهي صورة لم تنتشر كثيرا في الشعر العربي، ومنها اخترع وزن المخلّع بشيء من التطويع، وذلك بإدخال زحاف الخبن على عروض هذه الصورة وضربها ، فتصير (مُسْتَفْعِلْ) المقطوعة بالخبن: (مُتَفْعِلْ)، وتنقل إلى: (فعولن)، ولكن استقلالية هذا النمط الوزني، تجعل هذه التفعيلة صحيحة، والنظر في ارتباطها ببحر البسيط يجعلها مقطوعة مخبونة، فالشاعر جاء بتفعيلة مستساغة في بحر البسيط، وفي صورة قريبة من صورة المخلّع، ولكن هذه التفعيلة خاصة بالعروض والضرب، وهو جاء بها في الحشو، مما يسبب الاضطراب الوزني، وما يسترعي النظر أن هذه القضية بعينها تكررت عند الشاعر في قوله:٢٠

لا خَيَّبَ اللهُ أجْرَ عيسى		فَكَمْ يُداني إلْفًا من الْف
يَقْرِنُ هذا بذاكَ فَضْلا		كَأَنَّهُ- الدَّهْرَ- وَاوُ عَطْف

فالنص منسوب إلى مخلّع البسيط ، ولكن تفعيلة الحشو في الشطر الثاني من البيت الأول جاءت على وزن (مُسْتَفْعِلْ)، مما يجعل الأمر ظاهرة في شعره الذي جاء على هذا الوزن، ويجدد السؤال عن طبيعة تعامل الشاعر مع تفعيلات بحر البسيط، وكأنه لا يرتضي نمطية الوزن، أو يحاول إيجاد وزن جديد، من خلال تغييره في تفعيلة الحشو، وربما كان يرى جواز تفعيلة (مُسْتَفْعِلْ) في المخلع، كل هذه التبريرات حاولت استساغتها بعد أن وقفت على ما أورده الدماميني(ت٨٢٧هـ) من أنه "قد جاء في مخلّع البسيط مَفْعُوْلُنْ مكان فاعِلُنْ، وهو أيضا شاذٌّ"٢١، وأردف عبارته هذه بقوله: "ورأيتُ بعض المتأخرين يستعمله"٢٢، وهذا نص صريح بوجود هذا الإجراء في تفعيلة فاعلن، وهو صريح في الحكم عليه بالشذوذ أيضا، ويفيد وجوده في استعمال الشعراء المتأخرين، وابن سعيد وغيره من شعراء عصر الدراسة وجدوا في زمن يسبق زمن الدماميني بقليل، مما يرجح أن هذه الظاهرة مثّلت البدايات لما وجده الدماميني في شعر المتأخرين، ولعل هذه التفعيلة أربكت بعض محققي شعره، فنسبوا بعض أبياته التي من الأقرب نسبتُها إلى المخلع، لبحر آخر، فقد توهمت محققة مجموعه الشعري أن أبياته في تفضيل المغرب على المشرق من بحر السريع، ومصدر الأبيات عندها مخطوطة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وسبب توهمها تصحيفها للنص، وهو على الشكل الذي نقلتْه لا تصح نسبته لبحر السريع، والكتاب قد حُقِّقَ، فرجعت إلي طبعتَيْه٢٣، فإذا بالنص خلاف ما نقلته المحققة، وهذا نص ما أثبتّتْهُ في مجموع شعر الشاعر:٢٤

يَفْخَرُ بالمَشْرِقِ أهْلٌ فَخُذْ قَوْلَهم بقدح شَتيتْ

قالوا لَنا الشَّمْسُ في طلوعٍ قُلْنا لَهُمْ عِنْدَ مَنْ تَبيتْ
تَبيتُ حيثُ المِهادُ رَحْبٌ وَاللّيلُ فيهِ مِسْكٌ فَتيتْ

من خلال تقطيع البيت الأول عروضيا يتبين الخلط في الوزن، ومما زاد الأمر سوءا تسكين حرف الروي الذي أصبحت معه تفعيلة الضرب على وزن: (فعولْ)، فزاد ذلك من استهجان القالب الوزني للمقطعة، كما أن عدم ضبط بعض الكلمات بالشكل التام يوقع في لبس آخر، ككلمتي: (قولهم) و(قدح)، وبالرجوع إلى مصدر المقطعة تبين أن ثمة خطأ في نقل البيت الأول، وصوابه هو:٢٥

يَفْخَرُ بالشَّرْقِ أهْلُ فَخْرٍ قَوْلُهُمُ بَهْرَجٌ شَتيتُ

اللاحق

لا يخفى أن مطلع المقطعة اختلف كثيرا، ووزنه تحقق بشكل صحيح، وإطلاق الروي أسهم في صحة تفعيلة الضرب، وبهذا يمكن تقطيع النص عروضيا لمعرفة بحره، فالبيت الأول –مثلا– يكون على هذا النحو:

يَفْخَرُ بالشْـ/شَرْقِ أهْـ/لُ فَخْر		قَوْلُهُمُ/ بَهْرَجٌ/ شَتيتُ
٠/٠// -٠//٠/-٠////٠/		٠/٠// -٠//٠/ -٠////٠/
مُسْتَعِلُنْ- فاعلنْ- فعولنْ		مُسْتَعِلُنْ- فاعلن- فعولن
مطوية- صحيحة-صحيحة		مطوية- صحيحة- صحيحة

فالنص على وزن مخلّع البسيط، وليس السريع، وحركة الروي أسهمت في صحة تفعيلة ضرب المخلع، وقد نسب محقق مسالك الأبصار المقطعةَ إلى بحر المنسرح،٢٦ وهو وهم آخر، لا يصح على أية حال، حتى بليٍّ عنق التفعيلات تعتاص استساغته، إلا إن كان يعتدّ بأحذ المنسرح الذي لم ينتشر عند العرب انتشار المخلع الثابت عندهم٢٧ ويبقى أنّ في النص تكرار تفعيلة (مُسْتَفْعِلْ) عوض (فاعلن)، وهي كما مرَّ ظاهرة في شعر ابن سعيد المنسوب إلى المخلع، وهي هنا في آخر شطر في المقطعة، كما يظهر في الجدول الآتي:

تَبِيْتُ حَيْ/ثُ المها/دُ رَحْبٌ		وَاللّيلُ فِي/هِ مِسْكٌ/ فَتيتُ
٠/٠// -٠//٠/-٠//٠/٠/		٠/٠// -٠/٠/٠/-٠//٠/٠/
مُتَفْعِلُنْ- فاعلنْ- فعولنْ		مسْتَفْعلنْ- مُسْتَفْعِلْ- فعولن
مخبونة- صحيحة- صحيحة		صحيحة- مقطوعة-صحيحة

فلا تصح التفعيلة إلا بإشباع الهاء في قوله: (فيه)، وإن لم تُشبع فستصبح التفعيلة: (فعولن)، وهو ما لا يستقيم مع المخلع، والراجع أنها (مُسْتَفْعِلْ) المقطوعة؛ لتكرر ورودها في حشو ما نُسب إلى مخلع البسيط عند الشاعر. والحق أن هذه الظاهرة وجدت في شعر صفوان بن إدريس أيضا، في قوله:٢٨

بُرْهانُها الحَقُّ في المَعانيْ تَقْبَلُهُ فِطْرَةُ البَليد
إلى قَضاءٍ في النّاسِ فَصْلِ يَثْني عَلَيْهِ فَمُ الْحَسود

فالشطر الأول من البيت الثاني جاءت فيه فاعلن على مُسْتَفْعِلْ، وهي التي أشار إليها الدماميني بمفْعُولْنْ، وهي:

(ء في النّا=٠/٠/=مُسْتَفْعِلْ=مفْعُولنْ).

إن هذا الظاهرة المتمثلة في تفعيلة: (مُسْتَفْعِلْ) في مخلع البسيط قادتني إلى البحث عنها في شعر شعراء أندلسيين آخرين، فوجدتها في شعر لأبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الأندلسي(ت٦٨٠هـ)، في قوله من مقطعة يصف فيها المجبنات:٢٩

يَعْلو احْمِرارًا مِنْها ابْيِضاضًا اللاحق

وتقطيعه: /٠/٠//-٠/٠/٠/-٠//٠/

فالتفعيلة الثانية جاءت على (مُسْتَفْعِلْ)، فورود هذه التفعيلة عند أكثر من شاعر يشي بأنها أمر مستساغ شعرا، وقد أرشدني الدكتور

أحمد المصباحي محقق ديوان أبي عثمان القرشي الذي سبق ذكره إلى أن لحازم القرطاجني حديثا عن هذه القضية٣٠، وهذا نص القرطاجني: "فأما الوزن المضارع لهذا المخلّع وهو الذي اعتمد المحدثون إجراء نهاياته على مثال فعولن، فليس راجعا إلى واحد من هذه الأوزان٣١. وإنما هو عروض قائم بنفسه مركب شطره من جزأين تساعيين على نحو تركيب الخبب وتقديره: مُسْتَفْعلاتُنْ مُسْتَفْعلاتُنْ، وكأنهم يلتزمون حذف السين من الجزء الثاني لأن السواكن في كل وزن إذا توالى منها أربعة ليس بين كلّ ساكن منها وساكن إلا حركة تأكد حذف الساكن الثالث وحسن الوزن بذلك حسنا كثيرا"٣٢.

على هذا فإن ما جاء فيه تفعيلة: مستفعلْ = مفعولن، وظُنَّ أنه من المخلع، فهو ليس منه؛ لأنه وزن جديد قائم بنفسه "وردت فيه (مَفْعولُنْ) مكانَ (فاعِلُنْ) وهو اللاحق عند حازم، حيث: مُسْتَفْعِلُنْ = مُسْتَفْعِلا ، و مَفْعولُنْ = تُنْ مُسْتَفْ، وفَعولُنْ =عِلاتُنْ"٣٣، وقد أورد له القرطاجني شواهد لعلي بن الجهم، وأبي بكر بن مجبر، والرصافي البلنسي٣٤، وأسماه باللاحق٣٥، "ولا يستبعد أنه من وضع العرب"٣٦، أي: "قالت عليه العرب ولم ينص عليه الخليل"٣٧، ويبدو أن شعراء الدراسة ومن ناظرهم مثلوا مرحلة البدايات في النسج على هذا البحر المبتدع٣٨، فشواهده القديمة قليلة، كالتي ذكرها القرطاجني، وشواهده في عصر الدراسة ومكانها، يمثل ظاهرة بدأت في الشيوع، ويجسد حضورها في ديوانات الشعراء، فالبيئة الأندلسية شهدت محاولات ابتكار على مستوى الوزن، وقد "نصَّ حازم على وضع الأندلسيين لبحر جديد"٣٩، كما شهد عصر الموحدين محاولات التجريب على بحر الخبب، الذي أُهمل في الأندلس قبل هذا العصر، فوجدت بعض قصائد على وزنه للمرة الأولى في تاريخ الأندلس٤٠، وقد ذكر أحد المؤرخين قصيدة على هذا الوزن في مدح أبي يوسف يعقوب إثر رجوعه من إحدى الغزوات إلى إشبيلية، وكانت حينها أمراً بدعاً٤١.

تجدر الإشارة إلى أن هذا البحر ذاته قد ادّعت نازك الملائكة اكتشافه، وقد ردَّ على هذا الادعاء الأستاذ الدكتور: محمد الدناي في قوله: "وواضح أن الوزن مسْتفْعلاتُنْ الذي تزعم نازك الملائكة أنها ابتكرته، هو نفس البحر اللاحق الذي استدركه القرطاجني"٤٢.

الهوامش:

١- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٥٠.

٢- المصدر السابق، ص٨١.

٣- مصدر البيت عندها كتاب الشاعر نفسه، وهو المغرب في حُلى المغرب، وقد رجعت إليه فوجدت روايته وفاق ما هو مثبت في المجموع، انظر: المغرب في حلى المغرب، ٢/ ١٧٤.

٤- شعر صفوان بن إدريس، ص٨٣.

٥- مصدر المقطعة في المجموع : أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاء غزير (٥٦١هـ - ٥٩٨هـ)، محمد بن شريفة، وقد رجعت إلى المصدر فوجدت المقطعة ضمن رسالة نثرية للشاعر، ولم يُشِر المؤلف إلى مصدرها. انظر المصدر السابق، ص٢١٥.

٦- انظر: في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، ص١٢١.

٧- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٤٧.

٨- انظر: الوافي بالوفيات، ١٤/ ١٥٩.

٩- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٢٤.

١٠- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٢٧-١٢٨.

١١- المصدر السابق، ص١٢٩.

١٢- انظر: الوافي بالوفيات،٢٢/ ١٦٠، وفوات الوفيات،٣/ ١٠٦.

١٣- شعر ابن سعيد المغربي، ص ١٥٠.

١٤- ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرندي، ص١٣٨.

١٥- المصدر السابق، ص١٨٠.

١٦- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٤٣

١٧- ديوان الرصافي البلنسي، ص١٣٠.

١٨- ضرائر الشعر، ص١٣٢.

١٩- ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرندي، ص١٢٧.

٢٠- شعر ابن سعيد المغربي ، ص٨٨.

٢١- مصدر الرواية في المجموع كتاب نفح الطيب، وقد رجعت إليه، فوجدت رواية المجموع وفاق روايته، انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقَّري، تح: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، ١٩٨٨م، ٣٠٩/٢.

٢٢- انظر: في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، ٥٢.

٢٣- شعر ابن سعيد المغربي، ص١٤٠.

٢٤- قد رجعت إلى مصدره، فوجدته وفاق ما هو مثبت في المجموع، انظر: المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤، ١٩٩٣م ، ١٧٧/٢.

٢٥- العيون الغامزة على خبايا الرامزة، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدماميني(ت:٨٢٧هـ) ، ص١٦١.

٢٦- المرجع السابق، ص١٦١.

٢٧- طبعة دار الكتب العلمية، وطبعة المجمع الثقافي بأبي ظبي.

٢٨- شعر ابن سعيد المغربي، ص٧٤.

٢٩- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٥/٥. والطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ، ١٢٤/٥.

٣٠- انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٥/٥.

٣١- انظر: منهل الورد الصافي والهدى من فتح الكافي في شرح الشافي في علمي العروض والقوافي.

٣٢- شعر صفوان بن إدريس، ٢٠١٢م، ص٥٠.

٣٣- ديوان أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الأندلسي، ص٤٧.

٣٤- انظر المرجع السابق، ص٤٨، هامش ٨.

٣٥- يقصد الأوزان الخليلية.

٣٦- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٣٨.

٣٧- العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك، ص٢٨٠.

٣٨- لم يذكره القرطاجني باسمه، واكتفى بقوله: "بعض الأندلسيين" ، ولم يذكره المحقق، والشاهد من مقطعة مثبتة في ديوانه، انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٣٩، و ديوان الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب(ت:٥٧٢هـ) ، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٣٨.

٣٩- انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٥٦.

٤٠- النظرية العروضية بالأندلس، ص٥٧.

٤١- المصطلح البلاغي والعروضي عند حازم القرطاجني طبيعة استعماله وضروبه، ص٢٣٩.

٤٢- مخلع البسيط ليس من البسيط، ص٢٠.

٤٣- العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك، ص٢٧٩. و تفعيلات البحر: مستفعلن فاعلن فاعلن×٢.

٤٤- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي سعد عيسى، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط١، ١٩٧٩ م، ص٣٤٢.

٤٥- انظر : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين) ، ص٣٧٠.

٤٦- مخلع البسيط ليس من البسيط، ص٢٠.

المصادر والمراجع:

- أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاء غزير٥٦١هـ - ٥٩٨هـ، محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩م.
- ديوان الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب(ت:٥٧٢هـ)، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩م.
- ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرندي(ت:٦٨٤هـ) في أعماله الأدبية الشعر والنثر، تح: حياة قارة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط١، ٢٠١٠م.
- ديوان أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الأندلسي، تح: د. أحمد المصباحي، مطبعة الأندلس، الدار البيضاء، ط١، ١٤٣٠هـ،٢٠٠٩م.
- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، الهيأة المصرية العامة للكتاب،إسكندرية، ط١، ١٩٧٩م.
- شعر ابن سعيد المغربي، تح: هالة الهواري، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، ط١، ٢٠١٢م.
- شعر صفوان بن إدريس، تح: هالة الهواري، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، ط١، ٢٠١٢م.
- ضرائر الشعر، ابن عصفور الإشبيلي، تح: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
- العروض والقافية دراسة في التأسيس والاستدراك، محمد العلمي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٣م.
- العيون الغامزة على خبايا الرامزة، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدماميني(ت:٨٢٧هـ)، تح: الحسَّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.
- فوات الوفيات والذيل عليها، ابن شاكر الكتبي(٧٦٤هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت.
- في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، جامعة قاريونس، بنغازي، ط١ ، ٢٠٠٣م.
- مخلع البسيط ليس من البسيط- بحث عن الهوية الموسيقية لبحر فقد هويته من خلال ديوان مهيار الديلمي، د. محمد الدناي، مجلة كلية الآداب، فاس، العدد: ١٠، سنة ١٩٨٩م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ)، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ.
- المصطلح البلاغي والعروضي عند حازم القرطاجني طبيعة استعماله وضروبه، د. محمد حافظ الروسي، مجلة دراسات مصطلحية، مجلة حولية يصدرها معهد الدراسات المصطلحية، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، العدد الخامس، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦.
- المغرب في حلى المغرب، علي بن موسى بن سعيد، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤، ١٩٩٣م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح: الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م.
- منهل الورد الصافي والهدى من فتح الكافي في شرح الشافي في علمي العروض والقوافي لأحمد بن الحاج العياشي سكيرج(ت١٣٦٣هـ-١٩٤٤م) دراسة وتحقيق، إعداد: ليلى حبيب الله، إشراف الأستاذ الدكتور: خالد السقاط، أطروحة دكتوراه، شعبة الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، السنة الجامعية: ٢٠١٣-٢٠١٤م.
- النظرية العروضية بالأندلس، إعداد: عبد الكريم بوعزة، إشراف الأستاذ الدكتور: محمد العلمي، بحث لنيل الدكتوراه، شعبة اللغة العربية وآدابها، وحدة التكوين والبحث: دراسات في الأدبيات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، السنة الجامعية: ٢٠٠٥-٢٠٠٦م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد المقَّري، تح: إحسان عباس، دارصادر، بيروت، ١٩٨٨م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي(ت٧٦٤هـ)، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م.